أسباب اضطراب العالم
والجنون الاجتماعي

ورث القرن العشرون من القرن الذي سبقه جريمة الاستعمار . وكانت جريمة فظيعة لم يسمع لها مثيل في التاريخ . نعم كانت الأمم تحارب بعضها بعضاً، حتى إذا انتصرت إحداها استعبدت الأخرى وأدمجتها فيها كما فعل الاسلام مثلاً حين فتح الشرق والغرب وجعل جميع الناس سواسية في الحياة فلم يستعبد ولا عذّب ولا قتل . ولكن لم يحدث أن سبعة ملايين هولاندي تملكون سبعين مليون اندونوسي ويستعبدونهم ويفظعون فيهم ارهاباً لكي يستطيعوا أن يحكموهم بشرذمة من الجنود وبقليل من السلاح .

وكان من وسائل تنافس الدول في الاستعمار الامعان في دس الدسائس بين الأمة المُستعمَرة تنازعاً لها . وما كان في التاريخ قط ان أمة كالأمة الانكليزية وهي في طرف الكرة ، لا تغيب الشمس عن أملاكها . فالاستعمار الذي هو تنازع للبقاء بين المُستعمِر والمُستعمَر صار تنازعاً بين المستعمرين أنفسهم . وكان من وسائل تحميس الشعب للحرب أن هتلر كان يستفز الالمان بصراخه في آذانهم وتكريره في أذهانهم ترديده في خطبه « يجب أن نسترد مستعمراتنا » . وكانت دول الحلفاء قد تقاسمتها بعد الحرب الكبرى الأولى ، وكانت الحسنة الكبرى التي لا تغيب الشمس عن أملاكها . فكان أول أسباب الاضطراب العالمي هو الاستعمار . ثم تداعيه للانهيار .

فالحرب الأولى كان سببها تنافس الاستعمار حتى أنه سُمّيت « الحرب العظمى » . وفي الحرب الثانية جعل الاستعمار ينهار ، أو انه انهار ، وكانت النقطة الأولى التي دكّته دكّة بنود ويلسن رئيس الولايات المتحدة التي قصد بها ازالة أسباب الحروب . أهم بند فيها هو « سياسة تقرير المصير » التي زعزعت صولة الاستعمار . وعادت الحرب الثانية فلسفته لسفّاً وحررت أعظم الأمم المستعمرة — الهند وأندونيسيا وغيرها .

كانت الحروب في هذا القرن تنازعاً للمستعمرات فأصبحت اليوم « تنازعاً للبقاء » وهو أهول تنازع في العالم الانساني . ولماذا هذا التنازع ؟ يقال إنه تنازعٌ للبترول لأن العصر الصناعي يحتاج اليه أكثر من حاجته الى الرغيف — فهو ضروري للسفينة والقطار والطائرة والسيارة فضلاً عن المعمل الخ . وكل هذه من أهم أدوات التسليح . ولكن ما تكسبه الأمم المحاربة من الزيت تنفقه في الحرب لأجل الزيت. فما هذا التنازع الذي ليس للبقاء بل للفناء ؟

من لا يقول أن الحرب أصبحت اليوم ثورة جنون هائلة — جنون مطبق، تنتحر فيه الأمم انتحاراً — خسرت روسيا في هذه الحرب ٢٠ مليوناً من خيرة الفتيان . وخسرت أوربا وأميركا نصف هذا العدد ونصف ضعفه . ثم خسر الفريقان أكثر من نصف بترول الآبار التي تنزح اليوم . أضف الى هذه الخسارة من الانتاج والأرواح ضنك الأحياء — جميع الأحياء من الأمم : فقر وشح ونقص مأوى ونعس ، اللهم إلا ثروة نفر معدود ممن اختلسوا الثروات الهائلة وجعلوا يتمصون . يعني إنك اذا جعلت تعمل حساب الحرب ، « من » الى ، ترى أن العالم كله خرج خاسراً من هذه الحروب. يقال أن الحرب تنازع للبقاء فالأصلح يبقى . ولكننا نحن خرجنا من حربنا من غير صالح للبقاء ، بل خرجنا بلا بقاء ، فهل جنون شرٌّ من هذا الجنون الذي أفضى الى انتحار الأمم جمعاء . فلنبحث عن أسباب هذا الجنون .

يمكننا أن نرد الأسباب الى بضعة أو نحصرها في بضعة : —

أولاً صدق القول « إن الذكاء ضرب من الجنون » . لأن ذكاء الانسان نشط أخيراً نشاطاً جعل هذا القرن دوراً جديداً في العقل الانساني، وفاتحة تطور اجتماعي جديد لا مثيل له فيما سبق ، هو هذا الذكاء الذي استنبط السلكي واللاسلكي ، والآلات الكهربائية المحركة والزادر والطائرة والسيارة والسفن الضخمة ومحركاتها — وكلها وسائل للتواصل والتواصل يسبب احتكاك الأمم بعضها ببعض . وهذا الاحتكاك يحسّي الأمم باشباع بطن الطمع ، طمع الواحد بحق الآخر . ولكن هذه السهولة في اتصال الواحد بحق الآخر والاغترار باستلاك هذا الحق — وهي سهولة شائعة بين جميع الأمم — هذه السهولة

قلت الغاية رأساً على عقب. فبعد ان كان الغرض منها أن تقتنص الأمة الواحدة الأمة الأخرى صارت تخاف منها، أصبحت الأمم لا تطمع بنصيب غيرها من البقاء والحياة، صارت تتمنى السلامة والنجاة من ضمع غيرها. وبعد ان كانت الوزارة وزارة حرب صارت وزارة دفاع. ثم تبدل وزارة الحرب بوزارة دفاع تأدباً ولباقة وتهرباً من تهمة الطمع، بل صارت تخوفاً من الغزو والاعتداء الأجنبي — وخاصل القول أن الاختراعات الحديثة المتعددة كانت من أسباب الحرب. وأي حرب؟ حرب فظاعة وهول.

نعني أن من أسباب الحرب تيسر السلاح وتسهيل نقل الجنود. ففي حرب اليابان وروسيا كان الجيشان المتقابلان للقتال نصف مليون جندي في الجانبين. وكان ذلك أعظم جيش في التاريخ. وفي الحرب الأخيرة كان الجيشان المتحاربان لا يقلان عن عشرين مليوناً في جميع الميادين. وكان سطح الكرة الأرضية كله ميادين قتال. فلولا سهولة المواصلات، ووفرة آلات صنع السلاح، لما كانت هذه الحرب بهذه الضخامة الهائلة — هذا من أهم أسباب الحروب.

ولكن هذا التسهيل المادي للحرب لا يكفي أن يجعل الحرب ضخمة وشاملة هكذا. بل هناك أسباب اجتماعية أخرى. لا يكفي أن نقول أن جزيرة انكلترا أو غيرها ضاقت على شعبها فاضطرت أن تخرج الى القارات الأخرى تطلب رزقاً. لأن طلب الرزق لا يستوجب هذه الحروب، فها انكلترا فقدت مستعمراتها ولم تمت. فقد تعوضت منها بمعاهدات اقتصادية معها، فأغنتها عن الحرب للاستعمار. وكذلك المانيا فقدت مستعمراتها فلم تمت.

ثم إن سياسة طلب الرزق بسلبه من الغير لا يجدي. بدليل أن الدول المستعمرة أخفقت في الاستعمار وخسرت مستعمراتها.

فما هي أهم الأسباب الاجتماعية التي أفضت الى الحروب؟

هي أن بعض الأمم تريد أن تعيش عالة على أمم أخرى. وهذا يقتضي أن تعيش سيدة عليها. هذا شأن الأمم منذ القديم. وكانت ولا تزال الحرب وسائل للسيادة. ولكن نحن نبحث عن أسباب الحرب، فهناك وسائل لهذه السيادة قد تكون أهم من الحرب. هناك وسيلة الدس الذي ينخر في الجسم لكي يقصمه فيهبط بما عليه من سقف أو

جدار . هذا الرس الاجتماعي هو الدسائس . فان الامم في العهد الاخير صارت تدس الدسائس فيما بينها لكي تهدم بعضها بعضاً . وأقوى عامل في هذه الدسائس هو الدعاية وآلة الدعاية هي الصحافة . إذ فكرت مليًّا بهذه العوامل رأيت أن الصحافة صنعت في خلق الحروب ما لم تعمل عشر معشاره القنبلة الذرية . والقائمون بهذه الآلة هم لليهود في كل زمان ولا سيما في الزمن الاخير ، فالحروب الاخيرة أثارتها اليهود .

الثورات التي كانت تثار في روسيا في آخر القرن التاسع عشر كانت تثار ضد اليهود لانهم كانوا يمتصون دماء الشعب بالربا . وكان هناك حزب سري منهم ومن لفّ لفهم يسمى « النهلست » ، فتقوم الحكومة ضد الثورة وهي لا تعرف إلاّ أنها ثورة شعب ضد الحكومة .

لما قام حزب تركيا الفتاة ضد السلطان عبد الحميد وقلب الحكومة كان العنصر الفعال في هذا الحزب يهوداً وكان معظمهم من سلانيك . وكان بعضهم وقد أسلموا لهذه الغاية . وكذلك كان بعضهم ضباطاً في الجيش . فقامت حركة الثورة في سلانيك . وامتدّت الى جميع البلاد عن يد تركيا الفتاة التي كان يحركها اليهود ولا سيما الذين منهم في الجيش . وهكذا تمّ الانقلاب العثماني . وكان الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد قرار مجلس المبعوثان بخلعه مؤلفاً من ثلاثة مبعوثين أحدهم يهودي مسلم وهو الذي قرأ قرار الخلع على عبد الحميد .

ولما استلم أتاتورك قيادة الحكومة واكتشف مؤامرة على الحكومة قبض على المتآمرين وكان فيهم يهود مسلمون . وأظن كان جاويد وجاهد منهم .

ولما حدث الانقلاب في روسيا كان مع لينين ثلاثون يهوديًّا ولم يكن بينهم نصراني واحد حتى زوجته كانت يهودية . وقد أعلنت حكومة الانقلاب في الحال إلغاء الدين في روسيا ونشر الالحاد . وصار كل من يجحد الإلحاد يعاقب . وبهذا الاعلان والنشر اختبأ جميع اليهود الذين كانوا في روسيا وراء ستار الالحاد فلم يعد أحد يعرف من هو اليهودي ومن هو غير اليهودي الى اليوم . فالآن لا يعرف إذ كان ستالين أو مولوتوف ولا أي واحد من القابضين على زمام الحكم في روسيا يهوديًّا أو نصرانيًّا . فقد

يكرهون كلهم يهوداً والصلة التي بينهم وبين الصهيونيين تدل على هذا.

وفي الحرب الكبرى الأولى كان اليهود يحرضون عليها من وراء الستار. ولما انكسرت ألمانيا قال الجميع ان اليهود كانوا السبب. وما كان حتى هتلر عليهم واضطهاده إياهم في مدة حكمه وديكتاتوريته من أمر قليل. وقد لعبوا دوراً كبيراً في الحرب الكبرى الثانية. والآن يلعبون أدوارهم جهاراً في كل أوروبا، وفي الاميركيتين، بل في جميع العالم.

وما يقال له الحرب الباردة إنما هو حاصل دسائسهم.

والحرب الباردة أفظع من الحرب الساخنة، لأنها تجعل الآلفي مليون نسمة على سطح الكرة الأرضي في خوف دائم، واضطراب مقيم، بل في هلع مضنك. هي حرب الأعصاب ليست حرب أعصاب مجازاً بل هي حرب أعصاب فعلاً. تجعل الناس في اضطراب دائم لا يقر لهم قرار، ولا يطيب لهم عيش. دعها مرّوا على أنفسهم بالملاهي والمسليات. فيلهون ويلعبون، ويرقصون، ويشربون وهم سكارى لأنهم يشربون بلا حساب. وقد لوحظ أن استهلاك الخمور تضاعف بعد الحرب لأنهم ينفون به همومهم. والناس في هموم الحياة الآن أكثر جداً منهم في كل زمان. فالتقايض بين الامم يكاد يشل. والأسعار ارتفعت والأسواق السوداء البغت والبطالة انتشرت. أحوال لم تكن من قبل بهذا الشكل فلا بدع أن تتزلزل الأعصاب، وما أدراك ما تزلزل الأعصاب — هو ارتجاج في المخ، وهياج في المجموع العصبي ودنو الى الجنون. وتحرك الأمراض المختلفة.

وهنا وصلنا الى أهم نقطة في هذا البحث، وهو كيفية التهيج والاضطراب.

ان الحياة التي يحياها الناس في هذا الزمن تجهد أعضاء الجسم الحيوية اي اجهاد فتقلقل التوازن الذي كان بينها، فلا تعود تعمل متوافقة متعاونة فيما بينها. فالغدد الدرقية والنخامية والسنجية وغيرها صارت تتحمس فتفرز من هرموناتها [1] أكثر من المطلوب منها لقضاء

(١) وقد ترجمنا كلمة هورمون السابق الى كلمة «نور» العربية، وهي ترجمة مقبولة لان كلمة نور في القاموس وصول أو إفاضة بترتيب فيه، فأين هذا المعنى من كلمة هرمون، واذا رام القارىء أن يتتبع كلمة نور في القاموس فلن يفهم منها معنى كلمة هرمون وهو مادة كيميائية تفرزها الغدة وتنتقل بواسطة الدورة الدموية الى عضو آخر فتنشطه. لعل يفهم من كلمة نور هذا المعنى. واذا كنا في ما نكتبه كلمة نور اضطررنا أن نفسرها بلفظها العلمي الشائع Hormon فاذا لا نستعمل هرمون رأساً بلا مبرر لها

وظيفتها . أثرت في الخليات الدماغية فأخمدت قوة الارادة من جهة . وفوّرت العواطف من جهة أخرى . فأصبح الإنسان مقاداً لعواطفه أكثر من تعلقه أي أنه يعمل بإلهام العواطف أكثر مما يعمل بالهام العقل . فقلت رزانته وضعفت تبصرته ، ووهنت حكمته وكثر شذوذه عن الصواب .

فاذا كان معظم الناس مصابين بهذا الخلل الخبري أصبحت الهيئة الاجتماعية كلها مصابة به أيضاً فتغلب الشر على الخير ، وتغلب الغضب على التسامح والطيش على الرزانة . ولا يخفى أن الجماعة أكثر تعرضاً للشذوذ من الفرد بحكم المحاكاة . فإذا قام فردٌ ينادي بالحرية والمساواة ، والديموقراطية ، والاشتراكية أو نحو ذلك من القضايا الاجتماعية في قوم هاجت عواطفهم وماجوا لأن حالتهم العصبية مضطربة . ومن كان هادئاً وراسياً أصبح قاصياً ساخطاً .

وتعليل ذلك فسيولوجيًّا أن الإنسان سيء بأعمال المراكز العصبية التي في دماغه وجهله الشوكي . وجميع تصرفاته ناشئة عن عمل هذه المراكز ولا سيما المراكز الدماغية . فاذا حدث أي خلل في هذه المراكز ظهر أثره في تصرفات الانسان . وهذه المراكز كسائر أعضاء الجسم محتاجة الى التجديد والغذاء . والدم شأن عظيم في حياتها والهورمونات والغدد المختلفة تأثير كبير في أعماله . فاذا جاءتهم هذه الهورمونات بمقدار أكثر من حاجته أو أقل منه اختلت المراكز العصبية المتغذية من الدم .

الدماغ ذو فلقتين أو جانبين . الواحد خاص بالمراكز العقلية والآخر بالمراكز العاطفية . المراكز العقلية تتلقى المدركات المحسوسة الآتية للدماغ عن طريق المشاعر ، ثم تزن هذه المدركات وتوفق بينها . ثم أنها تسيطر على المراكز العاطفية بحيث تحببها من التهافت الى الشهوات ، وتتدارك اندفاعها فيها .

والمراكز العاطفية تعدو الشهوات كالسرور والغضب والحزن الخ ، ثم انها ترتد على الغدد نفسها التي سببت تهيجها وتؤثر فيها فتزيد افرازها أو تجهدها بحيث يقل افرازها فيختل عمل هذه الغدد وتختل وظيفة الأعضاء التي تعمل فيها .

نقول أن هذا التفاعل بين المراكز العاطفية الشهوانية والغدد هو سبب أعمالنا غير

الطوعية. أي الأعمال التي خرجت عن سلطة ارادته والتي يعجز العقل أحياناً عن تفويها أو ردّها . والمعلوم أن الانسان تسيطر مراكزه العقلية على أفعاله. فهو يفعل هذا الفعل أو ذاك لأن مراكزه العقلية السليمة قررت أن يفعل كذا وأوعزت الى أعصابه أن تنفذ الفعل . فإذا اختلت أعصابه للأسباب التي ذكرناها لم تعد تستطيع أن تفعل الفعل المطلوب سديداً لأنها خرجت عن سلطة العقل .

أما اختلال وظائف المراكز العصبية فيحدث بأسباب ربما كان أهمها سموماً تفرزها بعض الجراثيم المرضية في الجسم كالتيفوئيد والالتهاب الرئوي وتعفن الأمعاء . وهذا التعفن عام في الأنام وهو أكثر افرازاً للسموم ولا سيما مع الفيتول (حامض الفينيك) وهو يسبب تصلب الشرايين. فهذه السموم على اختلاف أنواعها تعمل في الغدد المشار إليها آنفاً أي تعطلها وتخل عملها . فقد تفرز من هورموناتها أقل من اللازم أو أكثر منه . وكلا الأمرين يؤثران تأثيراً سيئاً في المراكز العصبية في الدماغ والحبل الشوكي فتضطرب المراكز العقلية والمراكز العاطفية جميعاً . ويحدث الهياج العصبي بين غضب ورضى ، وسرور وحزن ، حتى يكاد الانسان يخرج عن حكم ارادته ويفعل أفعالاً شاذة ، ولا يعود يضبط لمسئوليته فيها، ولا يحسب حساب عواقبها . ويعجز عن كبح جماح عواطفه

إن بعض العواطف الآلية كالخوف والغضب والتحمس والملل والحزن . وجميع الحالات العاطفية تحمس الغدة « الفوق كلوية » Suprarenal وتحضها على عملها الى حدّ الاحراج ، فتشرع هذه تفرز الغزير من عصاراتها . وعصاراتها تحمس الغدة الدرقية والغدة النخامية فتضاعفها في افراز هورموناتها، وجميع هذه الهورمونات تهاجم المراكز العصبية في الجانب العاطفي من الدماغ، فتثيرها حتى تطغى على المراكز العقلية وتتدفق من حولها ولا يبقى لهذه طوق على صدها وردها، فيضعف التعقل وتدفع أمواجها في المجموع العصبي كله .

والخطر الأعظم انما هو في هذه الأمراج العصبية المتدفقة التي تعود فتفعل في الغدة الفوق كلوية وتشكدها في افراز هورموناتها ، وهذا الهورمون بدوره يعود فيفعل في الغدتين الدرقية والنخامية فيشكدهما. وهكذا تعود هورمونات هذه الغدد فتؤثر في المراكز العصبية وتثيرها الى حد الغضب والهياج حتى الجنون. وهكذا دواليك ، حركة عصبية واجهاد عقلي وثورات عواطف في دائرة ولا يوقف هذه الحركة إلا الموت والوهي

أخيراً أو أي عامل آخر مساعد للعامل الأول الذي حرّك هذه الحركة الاضطرابية . فكان العامل الأول خارجياً ولكن العوامل الأخرى كانت تضرب على أوتار الأعصاب فأصبحت بعدئذٍ داخلية كما رأيت .

هذا هو الحادث الآن في البشر . أعصاب ثائرة ومراكز عقلية مضطربة فضعف التعقل وقلت البصيرة حتى أصبح هذا الاضطراب العقلي والأخلاقي اجتماعياً مصاباً به كل فرد من أفراد البشر لأن أسبابه الفسيولوجية عامة . والطبع هذا الاضطراب الدماغي العصبي عوامل خارجية أولاً وهي التي سببت العوامل الداخلية . فما هي العوامل الخارجية

العامل الاول الأساسي هو نوع المعيشة التي يعيشها البشر اليوم والنظام الاجتماعي في الدرجة الأولى سبب هذا الاستقطاب الاقتصادي الغنى الفاحش من ناحية والفقر المدقع من ناحية أخرى . فالغنى الفاحش سبب الترف والبطر والتأنق في المأكل والملبس . فاعتلت المعد، وصارت تفرز السموم التي أعلت الغدد وهذه أعلت المراكز العصبية والدماغية وأخلت المراكز العاطفية فتسلط الجنون على العقل .

ثم ان العسف الاقتصادي التي تنهجه الرأسمالية كان من أهم الأسباب الخارجية التي تثير الأعصاب ، وبالتالي تخل وظائف الغدة ، وهذه بدورها تعل المراكز العصبية فتحدث الاضطراب العقلي وبالتالي الاضطراب الاجتماعي أو قل الجنون الاجتماعي .

ذلك ما فعله القطب الأول : الغنى الفاحش . وأما القطب الثاني الفقر المدقع فقد فعل أكثر وأسوأ . فسوء الغذاء ، وسوء المأوى ، وسوء الكساء — كل هذه الأسواء أثارت الحنق في الأفراد فضلاً عن وفرة الأمراض . وكل هذه تعل الغدد وبالتالي تخل عمل الأعصاب . وأخيراً تؤدي الى الاضطراب كما تقدم الشرح .

والبيئة الاجتماعية الحالية التي يقرع فيها سوط الاستبداد أوتار أعصاب كل دقيقة فتعل الغدد ، وتخل وظائفها ، وبالتالي تخل وظائف المراكز العصبية . وهذه النتائج التي تقدم لسطها .

وإذا كانت وسائل المعيشة معرقلة عرقلة لم يحدث مثلها في تاريخ البشر حتى كانت المعاملة تشتمل على الرغم من تسهيل المواصلات . فهذه العرقلة جعلت هموم الناس أربعاً تعصف في حياتهم فلا تجعل لهم الشتاتاً ساعة واحدة . فكيف لا تؤدي الى ما هم مضطربون دائماً

فالبيئة الاجتماعية الآن كلها مصابة بحمى اجتماعية ، أو بالأحرى هي جمرة لا يكاد يشفيها إلا الانتحار . وهي ستنتحر الآن أو في القريب العاجل إذا لم تقو المراكز العقلية على المراكز العاطفية . فكيف يحدث هذا ؟